المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

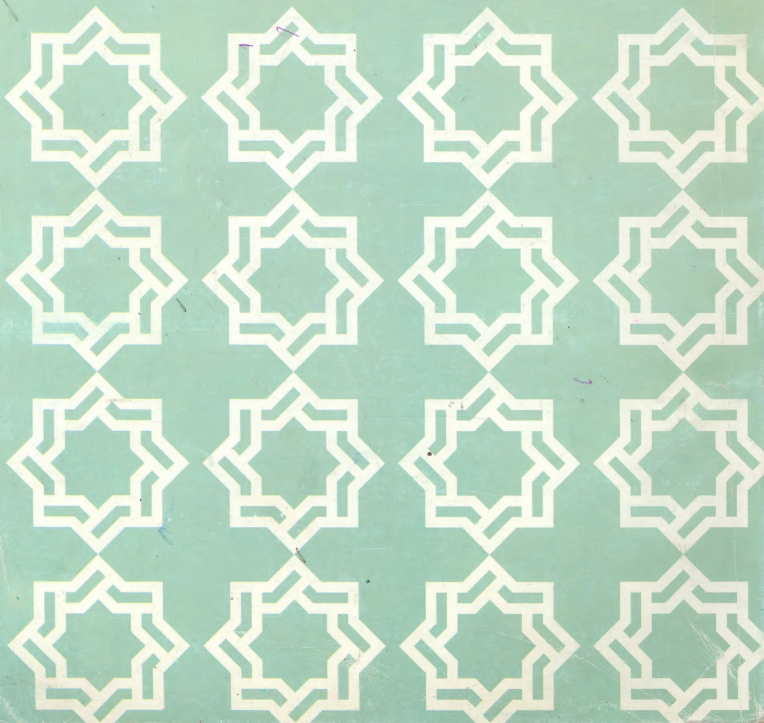

الاصلاح المالي والاقتصادي في سياسة

الخليفة عمر بن عبدالعزيز

٩٩ - ١٠١ هـ/٧١٧ - ٧٢٠ م

بقلم الدكتورة
جليلة ناجي الهاشمي
كلية الاداب - قسم التاريخ -
جامعة بغداد

ولد عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم بن ابي العاص ابن اميه بن عبد شمس بن عبد مناف(١) في المدينة سنة ٦٢ هـ(٢) وتوفى سنة ١٠١ هـ ، وان كنيته ابو حفص ، وامه ليلى ام عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب(٣) ، ودامت خلافته سنتين وخمسة اشهر واربعة ايام(٤) .

لقد ولاه الخليفة الوليد بن عبدالملك اميرا على الحجاز في سنة ٨٧ هـ ، بعد ان عزل هشام بن اسماعيل(٥) لسوء سيرته ومعاملته القاسية للحجازيين وكذلك لترضية الناس الذين استاءوا من معاملته . وبعد تنصيب عمر بن عبدالعزيز واليا على الحجاز اصبح الحجاز مركزا تتجمع فيه العناصر المناوئة للحكم الاموي فى العراق والتي هربت بسبب سياسة التعسف والاضطهاد الذي سلطه عليهم الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك . فقد كره اهل العراق الحجاج منذ اللحظة الاولى ، وله معهم مواقف لا ينسونها فهو الذى خطب فيهم قائلا: «ان امير المؤمنين عبدالملك نثر كنانته فعجم عيدانها فوجدني امرها عودا واصلبها مكسرا فوجهني اليكم ورمى بي في نحوركم(٦) »

نفذ الحجاج ما وعد به العراقيين من ظلم وجور واستبداد فاخرج المسلمين الجدد الى قراهم واخذ منهم الجزية بحيث جعل قراء البصرة يبكون لما حل بالمسلمين الجدد(٧) .

لقد وجدت تلك العناصر المضطهدة تجاوبا من جانب عمر بن عبدالعزيز ، الذي هو الاخر استاء من تصرفات الخلفاء انفسهم والولاة الامويين التي لم تراع مصلحة الناس ولا اي اعتبارات اخرى .. وحول ذلك كتب عمر الى الوليد يخبره بعسف الحجاج لاهل العراق واعتدائه عليهم وظلمه لهم بغير حق ولا جناية(٨) .

وبدلا من ان يستجيب الوليد الى ما اوضحه له عمر بادر الى عزل عمر بعد الحاح من الحجاج حيث علم الحجاج بتوجه العراقيين الى الحجاز واحتضان عمر لهم ، بالاضافة الى معرفة الحجاج بكره عمر له .. فقد استلم الوليد كتابا من الحجاج يندد فيه بسياسة عمر وجاء فيه « ان من عندي من العراق واهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولحقوا بالمدينة ومكة ، وان ذلك وهن(٩) » وهذا يعني ان عمر سمح لاهل الشقاق بالعيش في الحجاز ..

وبعد ان عزل الوليد عمر نصب خالد بن عبدالله القسري واليا على مكة ونصب عثمان بن حيان واليا على المدينة ، وبناء على رغبة الحجاج ومشورته لم يكتف الوليد بعزل عمر خوفا مما حذره منه الحجاج فى اضعاف سلطة الخلافة وانما امر عامله خالد بن عبدالله باخراج اهل العراق من الحجاز وتسفيرهم الى الحجاج ، فبعث خالد الى المدينة

(١) تاريخ الرسل والملوك ، الطبري ، محمد بن جرير ، الطبعة الاولى ، الجزء الثامن ، المطبعة الحسينية المصرية ص١٣٧.
(٢) نفس المصدر السابق ص ٩٠ .
(٣) العيون والحدائق في اخبار الحقائق ، المؤلف مجهول ، تحقيق دى غويه ، ليدن ١٨٦٩ ، ص ٣٧ .
(٤) تاريخ الرسل والملوك الطبري ، ط ١ ، ج ٨ ، ص ١٣٧ .
(٥) الكامل ، ابن الاثير ، ابو الحسن عزالدين علي ابن ابي الكرم الجزري ، الجزء الرابع ، الطبعة الثانية ، بيروت، سنة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م - ص ١٠٦ .
(٦) نفس المصدر السابق ، ص ٣٤ .
(٧) الكامل ، ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٧٩ .
(٨) تاريخ الرسل والملوك ، الطبري ، ج ٨ ، ص ٩٠
(٩) الكامل ، ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ١٢٩ .

عثمان بن حيان المرى لاخراج من فيها من اهل العراق، وفعلا اخرجهم جميعا ولم يترك تاجرا او غيره ، وعمل على اخراج كل عراقي سمع عنه في اي دار في المدينة(١٠) .

لم يكن العراق البلد الوحيد الذي تعرض لظلم الولاة واستبدادهم وانما شمل هذا الظلم والتعسف اكثرية المناطق التي خضعت للحكم الاموي ولم تنج منه حتى المناطق العربية كاليمن ، الذي كان سكانه من العرب وانهم حسب المفهوم القومي جزء من السلطة السياسية التي تمثل العنصر العربي الحاكم . فحينما ولي محمد بن يوسف الثقفي اخو الحجاج ، اليمن ، اساء التصرف وظلم الرعية واخذ اراضي الناس بغير حق ، ومن الاراضي التي اغتصبت، الحرجة ، وفرض على اهل اليمن خراجا ، جعله وظيفة عليهم(١١) .

ولم يقف الناس مكتوفي الايدي ، بل قاموا يرفع راية السخط والاحتجاج والتذمر تجاه ما كانوا يعاملون به ، وتعدى الامر الى أكثر من ذلك حتى بلغ الى القيام بالانتفاضات والتمردات على السياسة الاموية التعسفية . فعلى ارض العراق مركز الانتفاضات والثورات اريقت الدماء وازهقت الارواح البريئة ، ورغم الشدة التي استخدمها الولاة ، كان اندفاع الثائرين عنيفا للتخلص من سيطرة الارهاب والبطش التي فرضت عليهم ، وكلما قمعت انتفاضة الحقت باخرى .

انتفض العراقيون والتفوا حول ثورة ابن الاشعث ، فثاروا ضد المستبدين واضعفوا ثقة الخليفة بالوالي وزعزعوا سلطة بني امية ، ولم تكن انتفاضة العراقيين هي الاولى والاخيرة ، بل انتفض سكان سجستان وكابل وزابلستان والرخج ، فوقفوا بوجه الظلم ، وكذلك الختل حيث انتفضوا عدة مرات منها في سنة ٩٩ عندما كان المهلب بن ابي صفرة واليا على خراسان حيث فتحها بعد تلك الانتفاضة(١٢) .

وفي مصر كان السكان يعانون من واليهم قرة بن شريك الامر كبيرة ، وقد عبر عمر بن عبدالعزيز عن ظلم هذا الوالي للناس بكتاب ارسله الى الوليد جاء فيه : « ان اظلم مني واترك لعهد الله من استعمل قرة بن شريك اعرابيا جافيا على مصر اذن له في المعارف واللهو والشرب »(١٣) ، كما كانت افريقيا هي الاخرى تشكو عاملها يزيد بن مسلم حيث وصفه ابن عبدالحكم بانه « يظهر التأله والنفاذ لكل ما امر به السلطان مما جل او صغر من السيرة بالجور والمخالفة وكان في هذا يكثر الذكر والتسبيح ويأمر بالقوم فيكونون بين يديه يعذبون وهو يقول : سبحان الله والحمد لله شد ياغلام موضع كذا وكذا . .»(١٤)

كان عمر يراقب ما دار من احداث وشكوى وانتفاضات ضد الحكم الاموي ، حيث لم يكن بمقدوره عمل اي شيء وهو خارج الحكم ، الا انه استطاع ان يرسم خطة للمستقبل لاصلاح تلك الاوضاع ، وقد انعكست هذه الخطة بشكل واضح في سياسته بعد مجيئه للخلافة ، وكل ما استطاع عمر من القيام به وهو بعيد عن الخلافة هو النصح والارشاد للخليفة وغيره ، واحتضانه للمظلومين والفقراء ، وليس ادل على ذلك من انه عندما قدم الخليفة سليمان بن عبدالملك الى المدينة ووزع بها مالا كثيرا، سأل عمر ، كيف رأيت ما فعلناه ياابا حفص ؟ اجابه عمر قائلا : رأيتك زدت اهل الغش غنى وتركت اهل الفقر لفقرهم(١٥) . بهذه النظرة الانسانية الى مشاكل الناس ، وبهذا التحسس لواقع المشاكل التي يواجهها الناس وبذلك الشعور انفرد عمر بن عبدالعزيز عن بقية الخلفاء الامويين . لقد ادرك عمر بأن وجود التفاوت الاجتماعي بين الناس نتيجة حتمية لعدم توزيع الثروة بشكل عادل ، ولهذا رسم سياسته على اساس ارضاء غالبية المواطنين وخاصة المستضعفين والفقراء منهم .

اتفق المؤرخون على ان مجيء عمر الى الخلافة كان بعهد كتبه الخليفة سليمان بن عبدالملك عندما اشتد به المرض وتوفي بدابق(١٦) على ان يكون الخليفة من بعد عمر يزيد بن عبدالملك .

حاول عمر منذ البداية تخطئة سياسة الامويين واسلوب توليتهم للخلفاء ، ومعارضا لنهجهم ، فقد سلك اسلوبا آخر في اختيار الخليفة وهو اعطاء

---

(١٠) تاريخ اليعقوبي ، ابو العباس احمد ابن ابي يعقوب ابن جعفر ابن وهب ، ج ٣ ، النجف ، ١٣٨٤هـ ، ١٩٦٤ ، ص ٣٥ .

(١١) فتوح البلدان ، البلاذري ، احمد ابن يحيى بن جابر ، القسم الاول ، نشره ووضع ملاحقه وفهارسه الدكتور صلاح الدين المنجد ، القاهرة ، ١٩٥٧ م ، ص ٨٨ .

(١٢) نفس المصدر السابق ، القسم الثالث ، ص ٥١٤

(١٣) سيرة عمر بن عبدالعزيز ، ابن الجوزي ، جمال الدين ابي الفرج عبدالرحمن ، نسخة وصححة ووقف على طبعه محب الدين الخطيب ، مصر ص ١١٣ .

(١٤) سيرة عمر بن عبدالعزيز ، ابن عبدالحكم ، ابو محمد عبدالله ، نسخها وصححها وعلق عليها احمد عبيد ، الطبعة الثالثة ، دمشق ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م ، ص ٣٨ .

(١٥) نفس المصدر السابق ، ص ١٣١ .

(١٦) سيرة عمر بن عبدالعزيز ، ابن الجوزي ، ص ٤٧ .

الشعب حق الاختيار واعطاء الحكم على هذا الخليفة او ذاك ، وقد بدا بذلك من نفسه ، فعندما صعد عمر المنبر قال : « ايها الناس اني قد ابتليت هذا الامر عن غير راي ، كان مني فيه ، ولا طلبة له ولا مشورة من المسلمين .. واني قد خلعت ما في اعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لانفسكم »(١٧) . في الحقيقة لم يسبق لاي خليفة ان يخاطب الناس ويطلب منهم ان يختاروا خليفتهم ، على اعتبار ان الاختيار هو الطريق الصحيح والاسلم امام المواطنين ، كان عمر قد ادرك هذه الحقيقة وعمل على تطبيقها بكل جد الا ان ذلك لا يمكن تحقيقه من الناحية العملية اذ ان الخليفة الذي سياتي من بعده قد حدد مسبقا، ودون رغبته ،واصبح ملزما بتطبيق الوصية.

لقد حمل عمر ممن سبقه من الخلفاء مسؤولية تردي الاوضاع الاقتصادية من فرض الضرائب والاساليب القسرية في جمعها وارهاق الرعية ، كما انه حملهم مسؤولية مجيء خلفاء ضعفاء وولاة يفرضونهم على الناس شاءوا ام ابو ، لم يكن هم هؤلاء مصلحة الرعية سوى الحفاظ على مناصبهم التي اتخذوها وسيلة للثراء على حساب الشعب المتظلم ، ونتيجة لتلك السياسة انتقلت احسن الاراضي الزراعية بيد الخلفاء الامويين واتباعهم ، لذا فانه انكر سيرة اهل بيته وسماها مظالم ، حيث عبر عنها برسالة رد بها على بن يزيد يقول فيها : « تزعم اني من الظالمين لم حرمتك واهل بيتك فيء الله عزوجل الذي فيه حق القرابة والمساكين والارامل وان اظلم مني واترك لعهد الله من استعملك صبيا سفيها على جند المسلمين تحكم بينهم برايك ولم تكن له في ذلك الا حب الوالد لولده ، فويل لك وويل لابيك ما اكثر خصماءكما يوم القيامة وكيف ينجو ابوك من خصمائه ، وان اظلم مني واترك لعهد الله من استعمل الحجاج بن يوسف على خمس العرب يسفك الدم الحرام ويأخذ المال الحرام وان اظلم مني واترك لعهد الله من استعمل قرة بن شريك اعرابيا جافيا على مصر اذن له في المعازف واللهو والشرب .. فلو التفت حلقتا البطان ورد الفيء الي اهله لتفرغت لك ولاهل بيتك فوضعتهم على المحجة البيضاء فطالما تركتم الحق واخذتم في بنيات الطريق وما وراء هذا من الفضل(١٨) .

(١٧) نفس المصدر ص ٥٣ .
(١٨) نفس المصدر السابق ، ص ١١٣ .

اتخذ عمر بن عبدالعزيز عدة اجراءات لاصلاح الاوضاع الاقتصادية ولتحسين احوال المواطنين فقد قام قبل اتخاذ الاجراءات الاقتصادية بعزل الولاة حيث اعتبرهم جزءا من المشكلة ، اذ ان تنفيذ مخططه يستلزم وضع اداة منفذة مخلصة في تطبيق سياسته وما يهدف اليه .

عزل عمر الولاة القدماء الذين عينوا سابقا مثل يزيد بن المهلب وصالح بن عبدالرحمن عن العراق وعين على البصرة وارضها عدي بن ارطاة الفزاري ، وبعث الى الكوفة عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب(١٩) . وعزل اسامة بن زيد التنوخي عن خراج مصر ، حيث كان ظلوما معتديا في العقوبات ، وكذلك عزل يزيد بن ابي مسلم عن افريقية وكان عامل سوء .

وبسبب رغبة عمر في الانصراف الى اصلاح الاوضاع الداخلية ، ونزعته الى السلام واستتباب الامن في كل ارجاء الدولة الاموية وتقليلا للنفقات التي كانت تصرفها الدولة على الفتوحات الخارجية وجه عمر الى مسلمة وهو بالقسطنطينية يأمره بالرجوع منها بمن معه ، وارسل اليه العدد والمواد الغذائية بسبب ما اصاب المسلمين من مجاعة اضطرت عمر الى اسعافهم ليعودوا سالمين(٢٠) . كما انه كتب الى عبدالرحمن بن نعيم يأمره بأعادة من وراء النهر من المسلمين بذراريهم ، وعندما امتنع هؤلاء عن الرجوع ، اكد عمر على عبدالرحمن بن نعيم بأن لا يغزوا بالمسلمين ويكتفوا بالذي فتحوه(٢١) . وكذلك اوعز عمر الى اهل طرنده بالعودة عنها الى ملطية ويذكر ابن الاثير « ان طرندة واغلة في البلاد الرومية من ملطية بثلاث مراحل وكان عبدالله بن عبدالملك قد اسكنها المسلمين بعد ان غزاها سنة ثلاث وثمانين ، وملطية يومئذ خراب ، وكان ياتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم الى ان ينزل الثلج ويعودون الى بلادهم ... فامرهم بالعودة الى ملطية واخلى طرانده خوفا على المسلمين من العدو »(٢٢) .

كان عمر يكره الحرب وما تسببه للناس من اضرار وما كانت تثقل ميزانية الدولة من نفقات

(١٩) تاريخ الرسل والملوك ، الطبري ، ط١ ، ج ٨ ، ص١٣١ .
(٢٠) العيون والحدائق في اخبار الحقائق ، المؤلف مجهول ، ج ٣ ، تحقيق دى كويه ، ليدن سنة ١٨٦٩ ص ٣٩ .
(٢١) تاريخ الرسل والملوك ، الطبري ، ج٨ ، ص١٣٩ .
(٢٢) الكامل ، ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ١٥٩ .

اكثر مما كانت تجنيه من فائدة ، واذا كانت الغاية منها نشر الاسلام ، فبأمكانه نشره عن طريق السلام. فقد كتب عمر الى ملوك السند يدعوهم الى الاسلام على ان يملكهم بلا هم ولهم ماللمسلمين وعليهم ماعلى المسلمين(٢٣) .

اعفى عمر اهل الذمة من جزيتهم بعد اسلامهم. وكان قد وصل اليه ان الجراح بن عبدالله الحكمي والي خراسان يأخذ الجزية من قوم اسلموا ، جاء ذلك على لسان المولى الموفد الى عمر حيث قال : « يا امير المؤمنين عشرون الفا من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق ، ومثلهم قد اسلموا من اهل الذمة يؤخذون بالخراج »(٢٤) (المقصود بالجزية) فكتب عمر الى الجراح « انظر من صلى قبلك فضع الجزية ، فسارع الناس الى الاسلام فقيل للجراح : ان الناس قد سارعوا الى الاسلام نفورا من الجزية(٢٥) ولم يقتصر الامر على مسلمي تلك المناطق ، وانما شمل كل من يسلم من اهل الذمة، حيث اصبحت تلك اصولا متبعة في كل اجزاء الدولة الاموية ، ولم يكن بالشيء الجديد ، فقد سبق وان رفعت الجزية عن المسلمين من اهل الذمة في صدر الاسلام ، وان كان عمر قد عاد الى الماضي ففيه نفع للمواطنين ومصلحة اقتضتها طبيعة الظروف التي تمر بها الدولة الاموية ، وكذلك كتب عمر الى حيان بن شريح في مصر ، بعد ان اخبره هذا بأن الاسلام قد اخر بالجزية « اما بعد فقد بلغني كتابك، وقد وليتك جند مصر وانا عارف بضعفك ... فضع الجزية عمن اسلم »(٢٦) .
ولكن ارضه وداره انما هي من فيء الله على المسلمين(٢٧) .

كما ان عمر اصدر امرا منع به بيع الارض الخراجية « وكتب بذلك كتابا قرىء على الناس في سنة مائة ، واعلمهم انها لا جزية عليها وانها ارض عشر ، وكتب ان من اشترى شيئا بعد سنة مائة فان بيعه مردود ، وسمى سنة مائة المدة »(٢٨) . وكذلك كتب الى عامله « اما بعد فخل بين اهل الارض وبين بيع ما في ايديهم من ارض الخراج فانهم انما يبيعون فيء المسلمين »(٢٩) .

وبامكان المتحول الى الاسلام ان يزرعها ويدفع مقابل ذلك ضريبة الى الدولة واذا تركها فان اهل قريته هم اولى بزراعتها ودفع ما يترتب على ذلك من الضريبة .

ان الدافع الاساسي لجعل عمر ان يسلك هذه الخطوة هو حرصه على جعل الانتاج الزراعي اكثر وذلك عن طريق اشراف الدولة المباشر عليها وانه وضع تسهيلات كثيرة جدا من اجل ذلك ، لكيما تصبح الارض موردا ثابتا لميزانية الدولة ويؤكد ذلك ما كتبه الى عامله ، انظر ما قبلكم من ارض تزرع الصافية فاعطوها بالمزارعة بالنصف وما لم تزرع فاعطوها بالثلث فان لم تزرع فاعطوها حتى تبلغ العشر ، فان لم يزرعها احد فامنحها ، فان لم يزرع فانفق عليها من بين مال المسلمين ، ولا تبتزن قبلك ارضا »(٣٠) .

ومن باب العناية بالمزارعين وتشجيعهم على زراعة الارض ، اوجد قاعدة لتسليف المزارعين ، الذين لا يقدرون على زراعة ارضهم بسبب سوء وضعهم المالي ، فقد امر باعادة النظر في امر هؤلاء ومساعدتهم وبخصوص ذلك كتب الى عبدالحميد بن عبدالرحمن الوالي على الكوفة : « من كانت عليه جزية فضعف عن ارضه فاسلفه ما يقوي به على عمل ارضه »(٣١) .

---

(٢٣) نفس المصدر السابق ، ص ١٥٩ .
(٢٤) نفس المصدر السابق ، ص ١٥٨ .
(٢٥) نفس المصدر السابق ، ص ١٥٨ .
(٢٥) نفس المصدر السابق ص ١٥٨
(٢٦) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، المقريزي تقي الدين احمد بن علي بن عبدالقادر بن محمد ، الجزء الاول ، طبعة بولاق ، ص ٧٨ .
(٢٧) سيرة عمر بن عبدالعزيز ، ابن عبدالحكم ، ص ٩٤ .

(٢٨) انظر تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الاموية ، يوليوس فلهوزن نقله من الالمانية وعلق عليه ، دكتور محمد عبدالهادي ابو ريده ، راجع الترجمة دكتور حسين مؤنس القاهرة سنة ١٩٦٨ ، ص ٢٧٦-٢٧٩ اورد هذا النص ابن عساكر في كتابه (تاريخ دمشق) ، وذكره باللغة العربية فون كريمر في كتابه :
Kulturgeschichtliche streif zuge auf damgelsite des islams
ص ٦٠ والصفحات التالية ، وترجم بعضه في كتابه
Kultrugeshichte des orients unter den chalifen, 1, p. 7655
(٢٩) الطبقات الكبير ، محمد بن سعد ، ج ٥ ، ليدن سنة ١٣٢٢ هـ ـ عنى بتصحيحه وطبعه الدكتور سترستين ، ص ٢٧٧ .
(٣٠) الخراج ، يحيى بن ادم ، ج١ ، المطبعة السلفية ، ص ٥٩ .
(٣١) الاموال ، ابو عبيد القاسم بن سلام ، صححه وعلق هوامشه محمد حامد الفقي ، القاهرة سنة ١٣٥٣هـ ، ص ٢٥١ .

ان اهتمام عمر بالارض الانتاجية ومراعاة ما تتحمله الارض الخراجية من طاقة انتاجية وبذل المزيد على اصلاحها وعمارها ، حتى تعطي منتوجا وافرا ، وضرورة التفريق بين الارض المنتجة عن غيرها وعدم تحميل الارض غير المنتجة على حساب الارض الخراجية ، لما في ذلك من مصلحة للمزارعين، حيث ان دفع الخراج يقتصر على الارض المزروعة ، وقد اوضح عمر لعامله تلك الامور « لا تحمل خرابا على عامر ولا عامرا على خراب انظر الخراج فخذ منه ما اطاق واصلحه حتى يغمر ولا يؤخذ من العامر الا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لاهل الارض ولا تأخذن في الخراج الا وزن سبعة ليس لها آبين »(٣٢) .

كان عمر يتحسس مشاكل الناس وتظلمهم ، محاولا ايجاد حل يتناسب مع وضعية كل مشكلة ، اذا وجد فيه ما يخفف عن كاهل الناس ، ففي اليمن لما ولي محمد بن يوسف اخو الحجاج اليمن ، اساء التصرف وظلم الناس ، فاخذا اراضيهم بدون حق وضرب على اهل اليمن خراجا جعله وظيفة عليهم(٣٣) . وعندما اولى عمر امر عامله بالغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر(٣٤) . كما انه خفف عن كاهل النجرانيين ، حيث تقدموا اليه بالشكوى ونقصان عددهم ، والحاح الاعراب بالغارة عليهم ، وتحميلهم اياهم المؤن المجحفة بهم ، وظلم الحجاج اياهم(٣٥) .

قبل ان يتخذ عمر اية خطوة تجاههم ولمعرفة حقيقة امرهم وصحة ما يدعونه ، امر باحصاء عددهم فثبت له صحة ادعائهم فقال : « ارى هذا الصلح جزية رؤوسهم وليس هو بصلح عن ارضهم، وجزية الميت والمسلم ساقطة فالزمهم مائتي حلة قيمتها ثمانية الاف درهم(٣٦) .

ولم تقتصر اصلاحات عمر على ذلك بل انما خطى خطوة تقدمية ، حيث امر بالغاء عمل السخرة واعتبرها مظالم ، وبالغاء السخرة قضى على ابشع انواع الاستغلال الذي وقع على دافعي الخراج ، وكما ان الغاءه للسخرة جاء بفائدة للمزارعين حيث اعتبرها معونة لهم في خراجهم(٣٧) .

الغى عمر الضرائب الاستثنائية الاخرى ، مثل اجور الضرابين وهدية النيروز والمهرجان وثمن الصحف واجور الفيوج واجور البيوت ودراهم النكاح(٣٨) . وامر بأسقاط الكسور عن اهل الخراج(٣٩) ، والمعروف ان هذه الكسور كانت بقايا العملة المتجمعة ، نتيجة لاختلاف العملة اذ كان الناس في بداية عصر بني امية يتداولون نقودا مختلفة الاوزان منها الكسروية والقيصرية ، وكانوا يدفعون ما عليهم بالعملة الرديئة ويحتفضون بالعملة الجيدة، وقد اشار الى ذلك الماوردي « ثم فسد الناس فصار ارباب الخراج يؤدون الطبرية التي هي اربعة دوانم وتمسكوا بالوافي الذي وزنه وزن المثقال ، فلما ولي زياد العراق طالب باداء الوافي والزمهم الكسور وجار عمال بني امية ، الى ان ولي عبدالملك بن مروان ، فنظر بين الوزنين وقدر وزن الدراهم على نصف وخمس المثقال وترك للمثقال على حاله ، ثم ان الحجاج من بعده اعاد المطالبة بالكسور حتى اسقطها عمر بن عبدالعزيز واعادها من بعده »(٤٠) .

ان المؤرخين الليبراليين وعلى سبيل المثال : فون كريمر واوجست موللروفان فلوتن ، نظروا الى تلك الاجراءات التي قام بها عمر بن عبدالعزيز ، على انها صورة لورعه وما يدعيه من مثل عليا خيالية ، كما انه وصف من قبلهم بالرجعية والمحافظة الدينية، فبدد اموال الدولة وحملوه المسؤولية باطاحتها ، كما لم ينج من هذه النظرة الى عمر يوليوس فلهوزن . فقد ذكر فون كريمر واوجست موللران الاصلاحات في نظام الخراج التي قام بها عمر كان الغرض منها العودة الى تطبيق القانون القديم الذي يحرم امتلاك الارض على المسلمين ، وان ذهن عمر بحكم سلطان الدين عليه كان بعيدا عن كل ادراك لما تقتضيه الحكمة

---

(٣٢) تاريخ الرسل والملوك ، الطبري ، جـ٨ ، ص١٣٩ .
(٣٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، القسم الاول ، ص ٨٨ .
(٣٤) نفس المصدر السابق ، ص ٨٨ .
(٣٥) نفس المصدر السابق ، ص ٨٠ .
(٣٦) نفس المصدر السابق ، ص ٨٠ .
(٣٧) العيون والحدائق في اخبار الحقائق ، المؤلف مجهول ، جـ ٣ ، ص ٤٧ .
(٣٨) تاريخ الرسل والملوك ، الطبري ، جـ٨ ، ص١٣٩ .
(٣٩) الاحكام السلطانية ، الماوردي ، ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب ، الطبعة الثانية ، مصر سنة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م، ص ٨١ .
(٤٠) نفس المصدر السابق ص ٨١ .

السياسية وان كل ما فعله يكاد يكون قد ساعد في بصورة كلية على افساد نظام الدولة من اساسه ، كما انه اراد تحقيق مبادىء مثالية ، وكان تفكيره الساذج يقول له ان الله يريد كذا كذا ، وانه اذا كان الله يريد ذلك فمن الممكن تنفيذه(٤١) .

اما فان فلوتن فقد ذكر « لم تكن غلطة عمر بن عبدالعزيز سوى رجعيته ومحافظته الدينية وتمسكه الشديد بالنظام الذي سنه عمر بن الخطاب الذي كان يقتفي اثره ، رغم ما كانت تتطلبه الحالة من العدول عن ذلك النظام عدولا تاما ، لاغرو فقد كانت السياسة التي سار عليها عمر بن عبدالعزيز تحول دون ملكية الجند للارض ، بينما كانت الحالة تقضي بمنحهم اياها لاستغلالها واستثمارها (٤٢).

وذكر يوليوس فلهوزن عن اصلاحات عمر والدواعي لهذه الاصلاحات « كان الورع موجها لاعماله في امور الدولة وكان فى كل شيء يفعله يتمثل الحساب امام عينيه »(٤٣) وكذلك ذكر «لم يكن همه الزيادة في قوة الدولة بل اقامة الحق والعدل فيها »(٤٤) ، ويذكر ايضا عن الثورات التي كانت تهدد الامويين فيقول : « كانت تهددهم من جانب اهل العراق عداوة لا تلين ، هذه العداوة التي كانت تندلع بين حين وآخر فى صورة هائلة على الاستبداد الشامي البيض على ان اكبر خطر كان يهددهم هو تلك الحركة الاجتماعية التي لم تكن موجهة اليهم وحدهم بل الى السيادة العربية على اطلاقها . وقد حاول عمر بن عبدالعزيز ان يجيب مطالبهم دون ثمن غال ، ولعل الاعتبارات التي كانت تحدوه في ذلك قد كانت اعتبارات دينية اكثر منها سياسية(٤٥) .

ان هؤلاء المستشرقين اخطأوا فى تقديراتهم حول تلك الاعتبارات وجردوا عمر من كل وازع سياسي وجعلوا همه الوحيد ارضاء لرغباته الدينية وهذا ما يخالف الواقع تماما . لذا وجب علينا توضيح الغاية التي كانت تحدو عمر من جراء تلك الاصلاحات .

(٤١) انظر ، تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الاموية يوليوس فلهوزن ، هامش صفحة ٢٦٣ .
(٤٢) السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بنيامية، فان فلوتن ، ترجمة عن الفرنسية وعلق عليه الدكتورحسن ابراهيم حسن ، محمد زكي ابراهيم ، الطبعة ٢ ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٥٩ـ٦٠ .
(٤٣) تاريخ الدولة العربية ، يوليوس فلهوزن ، ص ٢٦٠ .
(٤٤) نفس المصدر السابق ، ص ٢٧٩ .
(٤٥) نفس المصدر السابق ، ص ٢٩٧ـ٢٩٨ .

كان عمر متتبعا لتلك الاحداث والثورات التي وصفها يوليوس فلهوزن بانها موجهة ضد السيادة العربية ، وعلى هذا فان اجراءاته جاءت عن خبرة سياسية ومراقبة طويلة لما كان يدور في الدولة الاموية من ثورات هزتها بعنف وكادت ان تطيح بها، ولذا فان عمر جاهد في كسب رضا الجماهير وتهدئة ثورتها وارادها ان تلتف حول قاعدة الحكم فكان بعيد النظر فى تقديم كل ما يمكن في سبيل ارساء الحكم السياسي واستمراره ، فليس من مصلحته استمرار الحكم السياسي الاموي وهو الاموي ؟ فكان يقول : قرة عين الملوك فى استفاضة الامن في البلاد وظهور مودة الرعية لهم وحسن ثنائهم عليهم »(٤٦) .

وكذلك ذكر فلهوزن « دعت عمر الى تحريم بيع ارض الخراج اعتبارات ترجع الى احوال بيت المال »(٤٧) « وبهذا لم يعط تحليلا صحيحا لواقع المشكلة اذ ان اقدام عمر على تحريم بيع ارض الخراج ، اراد به ان تكون الارض تحت تصرف الدولة وان تبقى الدولة هي المالك الشرعي للارض الخراجية ، حيث ابعد الفلاحين عن تعسف المالك واستحصال ضرائب منهم اكثر مما يتحملوه ، كما انه متن علاقة الفلاحين بالارض بحيث يجعلهم اكثر التصاقا بها ، اذ ان بيع الارض وانتقالها من مالك الى اخر قد يضر بانتاجيتها ، وثم ربط هؤلاء الفلاحين بصورة مباشرة بالدولة دون ايجاد علاقة ثالثة بينهما ، وعند ذاك تستطيع الدولة ان تتدخل وتحسم ما يحدث بسهولة وتحت اشراف منها كما ان هذا الاجراء بحد ذاته يعد دعما للنظام السياسي من حيث ان استقرار النظام السياسي واستمراره منوط بتنظيم الوضع المالي للدولة ، وبذا تستطيع الدولة تسديد نفقاتها المختلفة معتمدة على المورد الثابت لها . وعلى هذا فان منع البيع للارض الخراجية لم يكن بحد ذاته اجراء مالي فقط ، وانما اجراء سياسي ومالي في آن واحد .

اما فان فلوتن ، فقد اتهم عمر بالرجعية والمحافظة الدينية وتمسكه الشديد بالنظام الذي سنه عمر بن الخطاب الذي كان يقتفي اثره . ولا ندري ما يعنيه فان فلوتن برجعية عمر . هل رجعية عمر تعني بنظره ، انه سار على سياسة تحول دون ملكيةالجند للارض؟ وهذا ما اعتقد هو المقصود، الذي عناه فان فلوتن ، وبهذا يكون اخطأ في تعليله

(٤٦) سيرة عمر بن عبدالعزيز ، ابن الجوزي ، ص ٥٧
(٤٧) تاريخ الدولة العربية ، يوليوس فلهوزن ، ص ٢٩٣ .

حيث ان هذا الاجراء بالمفهوم العلمي للاقتصاد ، اجراء له اهمية كبيرة من حيث انتزاع الارض من الملكية الفردية وانتقالها بيد الدولة فتصبح الدولة هي المالك الشرعي للارض وبهذا تنقذ الدولة الفلاحين من الاستغلال الذي كان يسلطه عليهم الملاكون .

لقد فهم فلوتن مفهوم الرجعية بشكل لا يتفق والنظرة الصحيحة نحو مشكلة الارض ، ففي عرفه لو وزع الارض على الجند لاستغلالها ، لان الحالة كانت تتطلب ذلك ، وبمقتضى هذا المفهوم الخاطيء يكون عمر بنظره غير ما وصف به من رجعية .

ان فان فلوتن بنظرته هذه يريد تطبيق مايجري فى اوربا من العلاقات الاقطاعية وخاصة بما جرى في شمال ايطاليا بعد احتلال القبائل الجرمانية لها ، على الارض الاسلامية ،وهنا الخطأ ، حيث ان الفارق فى الظروف الذاتية والموضوعية كبير جدا .

وقد فات فان فلوتن ان مساوىء توزيع الارض على الجند لاستغلالها جاءت بنتائج سلبية من الناحية السياسية والاقتصادية ، فمن الناحية السياسية ، ان الخليفة في العصور العباسية المتاخرة اصبح العوبة بيد الجند وتحكمهم في مصير الخلافة فان استطاع مدهم بالاموال سايروه والا ثاروا ضده وخلعوه .

هذا من جهة ومن جانب اخر فبدلا من عنايتهم بالارض واصلاحها لازدياد انتاجيتها ، ان اصبحت الاراضى تعاني من الاهمال الشديد والخراب ومن ثم تركها ومطالبة الخليفة بتبديلها بغيرها ، وقد توضح ذلك بشكل جلي في منتصف القرن الثالث والرابع الهجري ، يوم ان كانت تقطع الارض على كبار الجند لسد نفقاتهم ، او على شكل مكافاة للقواد العسكريين ، نتيجة لانتصارهم ضد الاعداء ولكن هؤلاء تمسكوا بما حصلوا عليه من الارض بعد ما درت عليهم ارباحا كثيرة واذا كانت اراضيهم ذات ربح قليل لا تفي بسد نواقصهم وما اعتادوا عليه من حياة الترف ردوا تلك الاراضى وعرضوا عنها بغيرها(٤٨) . ونتيجة لتلك السياسة الخاطئة ان عم الخراب الاراضى الزراعية وقل انتاجها .

ان عمر لم ينس ضمان معيشة الجنود المقاتلين وايجاد الحل الصحيح لها فبدلا من منحهم الاراضى واستغلالها كما يبغي فان فلوتن ، فأن عمر فرض لهم ما يضمن معيشتهم ، بحيث كتب الى يزيد بن حصين « ان مر للجند بالفريضة »(٤٩) ولم يكتف بهذا بل اتبع ما كان سائرا فى عهد عمر بن الخطاب ، اذ ان عمر فرض لعيال المقاتلة وذريتهم العشرات ، فامضى عثمان ومن بعده من الولاة ذلك ، وجعلوها موروثة يرثها ورثة الميت ممن ليس فى العطاء ، حتى كان عمر بن عبدالعزيز فسار على ما قد اتبع »(٥٠).

اما عن تمسكه الشديد بالنظام الذي سنه عمر بن الخطاب ، فقد عاب فان فلوتن هذه العودة على عمر بن عبدالعزيز ، ووقف منه موقفا خاطئا .

لقد حاول عمر بن عبدالعزيز العودة الى النظام القديم وله الحق في ذلك من حيث انه توخى انجح السبل وافيدها . اذ ان النظام الذي سنه عمر بن الخطاب كان تجربة اولى ، وان اقام عمر بن عبدالعزيز على تلك الاصلاحات الاقتصادية ، لابد وان يعود الى الماضى وينتخب من هذا الماضى تجاربه الناجحة، لا ان يترك كل ما يخص الماضى بحجة انه ماضى ويجب ان يهمل وان ما جاء به عمر بن الخطاب من اصلاحات سار عليها عمر بن عبدالعزيز هي جيدة من الناحية الاقتصادية .

ولم يكن فان فلوتن وحيدا بنظرته تجاه العودة الى القديم ، وانما نجدها عند بعض المستشرقين والمؤرخين الذين نظروا الى المجتمعات البشرية نظرة بعيدة عن التحليل المادي لتطور المجتمع . وكانت التفاته عمر بن عبدالعزيز في اتباع ذلك التفاته صحيحة وليست رجعية ، اذ ان النظرة الى احياء الصالح من القديم ، هي النظرة التقدمية بذاتها ، وان اهمال القديم جملة ، هي النظرة الرجعية بحد ذاتها ، كما ان فان فلوتن اخطأ في تقديره اذ يقول « ففي العراق انضبت الاعطيات السنوية بيت المال بعد ان تأثرت موارده تأثرا محسوسا من جراء الغاء الجزية في خراسان »(٥١) . وهذا يتناقض مع الواقع اذ ان خراج خراسان لم يكن يشكو العجز ، بل كانت فيه فضلة وهذا ما اشار اليه الطبري(٥٢) . ان عمر

---

(٤٨) تجارب الامم ، مسكويه ، جـ٢ ، مصر ، ١٣٣٣هـ-١٩١٥م، ص ٩٧ .

(٤٩) فتوح البلدان ، البلاذري ، القسم الثالث ، ص ٥٦١ .

(٥٠) نفس المصدر السابق ، ص ٥٦١-٥٦٢ .

(٥١) السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني امية، فان فلوتن ص ٥٩ .

(٥٢) تاريخ الرسل والملوك ، الطبري ، جـ ٨ ، ص ١٣٩ .

بن عبدالعزيز كتب الى عقبة بن زرعة الطائي والى الخراج على خراسان إستوعب الخراج واحرزه من غير ظلم فان يك كفافاً لاعطياتهم فسبيل ذلك .. فكتب اليه عقبة بن زرعة . بعد ان وجد خراجهم يفضل من اعطياتهم ، ثم كتب اليه عمر ان اقسم الفضل فى اهل الحاجة .

كان عمر الشخصية السياسية المفكرة راقب عن كثب الاحداث التي كادت ان تميل بالدولة الاموية، كحركة المختار بن عبيدالله ، وحركة ابن الاشعث ومعارضة العلويين والخوارج للحكم الاموي .

فقد فكر في ايجاد حل لتلك المشاكل بحيث تضمن استمرار الحكم الاموي وانطلاقا من هذه المصلحة السياسية ونزعته الانسانية كان يتحتم عليه ايجاد قاعدة اساسية اجتماعية يستند عليها الحكم الاموي ، حيث اتضح له ان المحافظة على الحكم الاموي ، منوط برضا الجماهير ، اذ ان السياسة الصحيحة وتحسين الاوضاع الاقتصادية كل ذلك كفيل بالتصاق الجماهير وزيادة تلاحمها مع دفة الحكم ولهذا فان عمر توخى من اصلاحاته الاقتصادية القضاء على تلك الهوة الفاصلة بين الحاكم والمحكوم، فى ايجاد لحمة الوصل بين الحكم السياسي والقاعدة الجماهيرية . وبهذا الخصوص فقد ذكر المستشرق السوفيتي ، يفغيني الاكساندر بلاييف ، عن تلك الاصلاحات يقول ، « انها تمكن التوفيق بين غير المسلمين مع السلالة الحاكمة »(٥٣) .

---

(٥٣) العرب ، الاسلام والخلافة العربية في بداية القرون الوسطى ، ى . اى . بلاييف « باللغة الروسية » موسكو سنة ١٩٦٦ . ص ١٩٥ .